

بسم الله الرحمن الرحيم

ذات الصواري

الشيخ/ ناصر بن محمد الأحمد

إن الحمد لله..

أما بعد:

نحن بحاجة في كل فترة أن نتدارس أحداث إحدى المعارك الإسلامية، وقد حصل حديث عن معركة القادسية ثم اليرموك ثم نهاوند، وهذا هو الدرس الرابع نقف فيه مع بعض أحداث معركة ذات الصواري البحرية، حيث انتقل المسلمون الفاتحون حديثاً العهد في البحر وحروبه، إلى معارك بحرية جعلت فيما بعد البحر الأبيض المتوسط بحراً إسلامياً.

لقد تحول البحر المتوسط بعدما كان بحراً رومياً خاضعاً لسطوة وطول باع أسطول الروم في البحار، ولضخامة عدد سفنه وخبرته وفنون الإبحار، أصبح البحر الأبيض المتوسط إسلامياً تتيه فيه السفن الإسلامية المصنوعة بأيدي مسلمة وفتاحة، حصل ذلك كله بعد معركة ذات الصواري.

كانت مصر قبيل الفتح إحدى الولايات التابعة للدولة الرومانية. استولى عليها الروم سنة أربعين قبل الميلاد، فجعلوها تمدهم بما يحتاجون من الغلال، ورافق ذلك انحطاط في العلم وإغلاق أبواب المناصب العالية أمام سكان مصر الأصليين، وزادت عليهم الضرائب زيادةً كبيرة، شملت كل إنسان في مصر حتى شملت الأشخاص والأشياء، فكانت تُجبي على الرؤوس والصناعات وعلى الماشية والأراضي، ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع، بل كانت تُجبي على المارة رجالاً ونساءً، تجاراً وغير تجار، ومن صنّاع السفن، ومن زوجات الجنود، وعلى أثاث المنازل، ولم تقتصر الضرائب على الأحياء، بل تعدتها إلى الموتى، حتى كان لا يسمح بدفن الميت إلا بعد دفع ضريبة معينة. كما ألزم المصريون بإيواء من يمر بهم من الموظفين الملكيين والعسكريين من الرومان وتقديم ما يلزمهم من الحاجات، وتوفير أسباب الراحة لهم في حلهم وترحالهم، ولو أرهقهم ذلك، أو كان فوق طاقتهم. والحق أن ذلك كله جعل الشعب في ضنك من العيش حتى وصل الظلم في النهاية إلى إلزام الشعب بأن يقوم بغذاء الجنود كلهم، فأدى هذا إلى أعباء مرهقة أضعفت الشعب المصري وبالتالي جعلته يسخط على الحكم الروماني الظالم المستبد الذي ركز على جباية المال وامتصاص خيرات مصر ومواردها بأي شكل.

أما الخلافات الدينية فلا يستهان بها، فمسيحيو مصر كانوا من الأرثوذكس، بينما كانت عاصمة الدولة الرومية كاثوليكية، فقام خلاف كبير وخطير بين المصريين والروم، فلا عجب إذا أصبح سكان مصر في ضيق وبغض لحاكمهم الظالم المستبد الذي ما فكر في إصلاح أو خير، وجعل المصريين في تيه فكري بسبب الخلافات الدينية مع فقر وحاجة، لذلك فرح المصريون بظفر المسلمين في اليرموك وبانهزام الروم وانسحابهم من سورية. وكان سرورهم أعظم عندما سمعوا عن معاملة المسلمين الفاتحين للشعوب، فعلموا علم اليقين أن المسلمين ليسوا كغيرهم من الفاتحين.

قدم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى الجابية قرب دمشق سنة ثمانٍ عشرة للهجرة فأناه عمرو بن العاص أحد القادة الأربعة، الذين ندبهم الصديق لفتح الشام وفلسطين وكان من نصيب عمرو بن العاص فتح فلسطين التي كان واليها من قبل الروم "أرطوبون" وقد قال عمر بشأن عمرو وأرطوبون: "قد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب فانظروا عما تنفرج". فانفرج الموقف عن فتح فلسطين كلها على يد عمرو بن العاص - رضي الله عنه - وأرضاه.

قال عمرو بن العاص لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب: "أذن لي في المسير إلى مصر إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم".

تردد عمر في الأمر، فقد أشفق على المسلمين أن يصيبهم إرهاب من حرب يتلوها حرب، وخصوصاً أن عددهم قليل، إذ لم يتمكن عمرو أن يجمع لفتح مصر جيشاً كافياً في عدده وعدده لتفرق جند المسلمين في الشام والجزيرة وفارس، لقد تعددت الجهات وتوسعت رقعة البلاد فاننتشر الجند. أضف إلى ذلك خشية عمر من التوسع في الفتح دون أن ترسخ أقدام المسلمين وتنتثبت في البلاد المفتوحة، فالهدف من الفتح نشر الإسلام بإظهار حسن المعاملة وحسن السيرة وكرم الخلق وأرقى مراتب التربية. لكن عمراً على الرغم من ذلك هوّن الأمر على عمر وخصوصاً أنه وقف على أحوالها في الجاهلية عند قدومه إليها تاجراً عدة مرات، إنه عالم بمسالكها وبتيبرم أهلها من حاكمهم الرومي. ركز عمرو في إقناعه لعمر على أن فتح وتحرير مصر معناه تثبيت فتوحات الجنوب العربي وأن بقاء مصر في يد الروم يعرض سيادة المسلمين في بلاد الشام لخطر هجوم من الغرب. وما زال عمرو بعمر حتى أذن له بقصدها وعقد له اللواء فسار عمرو باتجاه مصر ومعه أربعة آلاف رجل فقط.

سار عمرو إلى مصر عابراً فلسطين من شمالها إلى جنوبها، اخترق الجيش سيناء سنة ثمانٍ عشرة للهجرة ففتح العريش من غير مقاومة تُذكر؛ لأن حصونها لم تكن من المتانة بحيث تقف في وجه المسلمين المجاهدين زمناً طويلاً، ولعدم وجود حامية رومية بها. ثم غادر عمرو العريش سالكاً الطريق الذي سلكه في تجارته إلى مصر. لم يشتبك عمرو مع جند الروم في قتال حتى وصل إلى مدينة "الفرما" وهي مدينة ساحلية قديمة ذات حصون قوية وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جدول ماء عذب من النيل، هُدمت أسوارها أيام الغزو الفارسي ثم رمّ الروم ما هدمه الفرس فعادت أسوارها منيعة على المغيرين فحاصرها المسلمون أكثر من شهر فوقف عمرو يُحمس الجمع ويبيث فيهم روح التضحية كي لا يقف طويلاً أمام هذه المدينة. تم الفتح في أول المحرم سنة تسعٍ عشرة للهجرة. تابع عمرو السير حتى وصل مدينة "بليبيس" فوجدها محصنة وفيها أرطوبون الروم وقد فر من فلسطين والتجأ إلى مصر قبيل تسليم بيت المقدس وخلال شهر لم تنقطع فيه الاشتباكات استطاع عمرو أن يفتح بليبيس، رغم مقاومة أرطوبون ومن معه.

طلب عمرو بن العاص المدد من أمير المؤمنين فأرسل أربعة آلاف مجاهد من قوات المسلمين بالشام وعلى رأسهم: الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد. كما بعث إليه بكتاب يقول فيه: "إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، واعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من

قلة". هؤلاء الذين كان واحدهم بألف، ماضيهم العريق في الإسلام يشهد لهم أن ذخيرتهم طيبة. وعمر على كل حال خبير بمعادن الرجال يعرفهم بحاسة لا تخطئ، لقد عرف ما في قلوب هؤلاء من إيمان و يقين فقيمتهم وهو الخبير بهم فكان واحدهم بألف فهل سيحققون شيئاً في فتح مصر؟ هذا ما سيتضح بعد قليل.

وصل هذا المدد بقيادة فارس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الزبير بن العوام إلى عين شمس فسار عمرو لملاقاته ليكسب شرف استقبال أصحاب رسول الله ولكن قائد الروم تقدم في عشرين ألفاً ليضرب المسلمين ضربة قاصمة قبل وصول المدد إليهم، ولكن عمراً تنبه للأمر، فوضع كميناً في "الجبل الأحمر" شرقي العباسية، وآخر على النيل ولاقاه ببقية الجيش، ولما نشب القتال بين الفريقين، خرج الكمين الذي كان في الجبل وانقض على الروم، فاختل نظامهم واضطرب قائدهم فترجع لينظم قواته فقابله الكمين الآخر فأصبح هو وجيشه بين جيوش المسلمين من ثلاث جهات فحلت به الهزيمة فركب بعضهم في النيل وفر إلى حيث لا يدري وفر قسم كبير منهم إلى حصن بابلين، فقويت الحامية في هذا الحصن.

لم يبق أمام عمرو إلا حصن بابلين فإن فتح، فتحت مصر كلها، ولكن طال بجيش عمرو المكوث في أرض مصر وطالت وقفتهم أمام أسوار حصن بابلين وانتظر الفاروق أبناء الفتح ولكنها تأخرت، فليس من عادة جيش المسلمين تأخره في فتح البلاد، لذلك غضب الفاروق أشد الغضب وخشي أن تكون الدنيا غيرت نفوس وقلوب الفاتحين فكتب إلى عمرو يقول له: "أما بعد: فقد عجبت لإبطائكم في فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله - تبارك وتعالى - لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمت أنك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكون غيرهم ما غيرهم، فإذا أتاك كتابي فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورجبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند زوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها، ووقت للإجابة، وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم". فحاصروهم عمرو بمن معه عام عشرين للهجرة، وكان ذلك وقت فيضان النيل مما أعاق إحرار النصر، فطال الحصار، ومع ذلك فالحصار باق على الحصن والمؤونة تتناقص في داخله، فأخرج ذلك موقف المقوقس في داخله وأعجب بالمسلمين وبشجاعتهم وصبرهم، فخرج مع نفر من قومه بسفن ولحقوا بجزيرة الروضة، وكتب إلى عمرو: "إنكم قد ولجتم بلادنا وألحتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصابة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعننا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تتدموا إن كان الأمر مخالفاً لمطلبكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء".

فلما أتت عمراً رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم!. لقد استقبل عمرو رسل المقوقس كما تستقبل

وتحترم الوفود، ولكنه رضي الله عنه - أراد أن يطلع الرسل على حال جند الإسلام وكيف حياتهم! كيف محبة بعضهم لبعضهم الآخر! كيف صلاتهم! كيف يتعاملون! وكيف يحترمون ويُحترمون!

إن إبقاء الرسل عند المسلمين لمدة معينة، خطة متبعة في الفتوحات الإسلامية، وهي خطة تحقق أكثر من هدف، إنها تعطي فكرة عملية برؤية العين فتصبح الفكرة يقيناً في نفس المشاهد عن حياة المسلمين، فيعظمون في نفوس أعدائهم خصوصاً إذا رأى رسل الوفد: التواضع، المحبة، التكاتف، التضامن، الرحمة، الإيمان والتقوى، محبة الجند للقائد، ومحبة القائد لجنده، جمع متمثل بواحد، وواحد يمثل الجمع، بنيان مرصوص يشد ويكمل بعضه بعضاً. وعند عودة الوفد، يُحدّث بما رأى حتماً، فيحطّم من حيث لا يدري معنويات قومه، فتهبط معنوياتهم إلى ما دون الصفر، وبذلك سيدخلون حرباً يعلمون أن معنويات النصر ليست إلى جانبهم، ولا سبيل للمقارنة بين جيش يدخل الحرب وعدوه في عينه عظيم كبير متماسك، وبين جيش متأكد من سبيل النصر، وأن النصر من عند الله، وهم جند الله. ولما ردّ عمرو رسل المقوقس قال لهم: إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: "إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا، وإن أبيتم فأعطيتكم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين". فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال: كيف رأيتم القوم؟ قالوا: "رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهم، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم" فقال المقوقس عند ذلك: "والذي يُحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد! ولئن لم نغنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقروا على الخروج من موضعهم". فرد عليهم المقوقس رسله يقول لهم: ابعثوا إلينا رسلاً منكم، نعاملهم ونتداعى عندهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم. فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر، أحدهم عبادة بن الصامت، وكان رجلاً طويلاً وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم، وألاً يجيبهم إلى شيء دعوه إليه، إلا إحدى هذه الخصال، معللاً ذلك بقوله: فإن أمير المؤمنين قد تقدم إليّ في ذلك وأمرني ألا أقبل إلا خصلة من هذه الخصال الثلاث، وكان عبادة - رضي الله عنه - أسود البشرة، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده، وقال: نحوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني فقالوا جميعاً: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله. فقال المقوقس: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم! وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟ قالوا: كلا! إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعاً، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً، وليس ينكر السواد فينا، فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود وكلمني برفق، فتقدم إليه عبادة فقال: "قد سمعت مقالتك وإني فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سواداً مني، وأفزع منظرًا ولو رأيتم لكنت أهيب لهم مني، وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وكذلك أصحابي". فلما سمع المقوقس منه قال لمن حوله: "هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط، لقد

هبت منظره وإن قوله لأهيب عندي من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض وما أظن ملكهم إلا سيغلب الأرض كلها". ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال: "أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصي عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقتلكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقتلكم، وقلة ما بأيديكم ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحك على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضوها وتتصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به". فقال عبادة: "يا هذا، لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك أمّا ما تخوفنا به من جمع الروم وكثرتهم وعددهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، وما منا رجل إلاّ وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة وألا يرده إلى بلده، ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه وأهله وولده، وإنما همّنا ما أمامنا، وإن أبيت فليس بيننا وبينكم إلاّ المحاكمة لل سيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم، هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم". فقال المقوقس: "هذا لا يكون أبداً ما تريدون، إلاّ أن تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا". فقال عبادة: "هو ذلك فاختر ما شئت". قال المقوقس: "أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث؟". قال عبادة وقد رفع يديه: "لا ورب السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم". فقال المقوقس وقد التفت إلى أصحابه: "قد فرغ القوم فما ترون؟". فقالوا: "أو يرضى أحد بهذا الذل! أمّا ما أرادوا من دخولنا إلى دينهم فهذا لا يكون أبداً، أفنترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين لا نعرفه! وأمّا ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيداً، فالموت أيسر من ذلك، لو أرادوا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا". قال المقوقس لعبادة: "قد أبى القوم فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرتك هذه ما تمنيتم وتتصرفون". فقال عبادة وأصحابه.

فقال المقوقس لأصحابه: "أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة واحدة من هذه الثلاث، فو الله ما لكم بهم من طاقة! ولئن لم تجيبوا إليهم طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين". فقالوا: "وأي خصلة نجيبهم إليها؟ قال: "إذا أخبركم، أما دخولكم في غير دينكم فلا أمركم به، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة"، قالوا: "فنكون لهم عبيداً أبداً؟". قال: "نعم، تكونون عبيداً مسلوطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم، خير لكم من أن تموتوا من آخركم، وتكونوا عبيداً تباعون وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهلكم وذراريكم". قالوا: "فالموت أهون علينا".

وكان لرسالة عمر إلى عمرو أثر كبير في نفس الزبير بن العوام، فقال: "إني أهب نفسي لله تعالى، وأرجو أن يفتح الله بذلك للمسلمين". فوضع سُلماً إلى جانب الحصن، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيرة يجيبونه جميعاً، فما شعروا إلاّ والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، لقد جلجل الفضاء في سكون الليل بصوت فارس رسول الله من أعلى الأبراج وهو يهتف صائحاً من أعماقه: الله أكبر.. الله أكبر.. ويصيح وقد لف رأسه بعمامة صفراء علامة حب الموت أو النصر.

واستفاق الروم من سكرات الفزع على قفزات جريئة مروعة ابتدأها الزبير إلى داخل الحصن. وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً أن ينكسر السلم، ومن داخل الحصن كبر الزبير تكبيرة، فأجابه المسلمون من خارج الحصن بصوت واحد: الله أكبر.. أجابوه بنشيدهم في اليرموك وهتافهم في القادسية، وترنيمتهم المحببة في نهاوند. الزبير بن العوام داخل الحصن عند بابه من الداخل يزيح الحراس عن الباب وهو يكبر، والمسلمون يكبرون من خارج الحصن، فلم يشك أهل الحصن أن المسلمون قد اقتحموا جميعاً داخل الحصن واستطاع الزبير فتح باب الحصن واقتحم المسلمون الحصن، ولما خاف المقوقس على نفسه ومن معه، سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه، فأجابه عمرو إلى ذلك.

وهكذا تحققت فراسة الفاروق في تقييم الرجال ومعايير البطولة وطابت نفسه بالنصر، فالدنيا لم تغير معادن من رباهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وطابت المدينة بالنصر الحاسم الذي سطره ابن العوام وحده، وكان حقاً بألف رجل.

وممن شهد فتح مصر من الصحابة مع عمرو بن العاص: الزبير بن العوام وعبد الله بن عمرو بن العاص، وخارجة بن حذامة العدوي، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وقيس بن أبي العاص السهمي، والمقداد بن الأسود وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، ونافع بن عبد قيس الفهري، وأبو رافع مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة، ووردان مولى عمرو بن العاص وكان حامل اللواء. وكان فتح مصر يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة.

فُتحت مصر، وأمضى الطرفان الصلح، وكتب عمرو كتاب أمان: "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص..".

ترك المسلمون الأرض لأهلها مشجعين الزراعة، وأخذوا على عاتقهم حمايتها مع تأمين السكان على أنفسهم ونسائهم وما يملكون، فشعروا براحة نفسية كبيرة لم يعهدها من قبل، حتى أن نص العهد صريح في أن الجزية تخفّض في حال شح النيل! أبعد هذه الرحمة رحمة!؟.

أعاد المسلمون الأمن والنظام إلى مصر، وقاموا بإصلاحات عظيمة، كتنظيمهم للإدارة، وتنصيب القضاة، ليأخذ الضعيف حقه، ولنصرة المظلوم، ورسوموا خطة جباية، وعنوا عناية خاصة بهندسة الري، مع تنظيف الترع، وبناء المقاييس، وإنشاء الجسور والأحواض، فتحسنت أحوال القبط وزادت ثروتهم، بعد ألم وفقر أيام العهد الرومي.

كبرت آمال المسلمين وتوسعت آفاقها على نغمات النصر وأصداء الفتوح وأصبح كل فرد منهم لا يعبأ بالمال على وفرته، وأصبح همّ الجميع أن تعم كلمة التوحيد أقطار الدنيا، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، وهكذا أصبحت مصر أيام عثمان بن عفان - رضي الله عنه - منطلق الجيوش إلى شمال أفريقيا حتى بحر الظلمات. كما بدأ المسلمون في بناء السفن ليتم لهم بناء الجيش القوي المكتمل براً وبحراً.

ولمّا ولي معاوية بن أبي سفيان الشام، ألح على عمر الفاروق في غزو البحر وذلك لقرب الروم من السواحل العربية، ومما كتبه معاوية لعمر "إن قرية من قرى حمص ليُسمع بنباح كلابهم، وصياح دجاجاتهم" ومعاوية

يعني جزيرة "أرواد" القريبة من الساحل واحتار عمر، وشغل قلبه، أيسمح للناس بركوب البحر وما ركوبه من قبل مجاهدين فيه؟.

أمام هذه الحيرة، كتب عمر إلى عمرو بن العاص واليه على مصر: "صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني عليه". فكتب عمرو إلى عمر مجيباً على رسالته: "إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلى السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين بالنجاة قلةً، والشك كثرةً، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق". قرأ عمر الفاروق كتاب عمرو بن العاص وأرسل قراره الذي اتخذته إلى واليه على الشام معاوية قائلاً: "والذي بعث محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وبالله لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الروم".

نتساءل: لماذا يقف عمر هذا الموقف؟ وهل يُعقل أن تبني دولة عالمية دون أسطول بحري؟ عمر العبقرية المتميزة في كل شيء بحنكته، وسعة أفقها، وروعة اجتهادها، وعظمة قلبه - رضي الله عنه -، هل يُعقل أنه وقف موقفه هذا لمجرد وصول رسالة عمرو بن العاص من مصر؟.

وقف عمر - رضي الله عنه - موقفه هذا لأسباب: من ذلك: خوفه على أرواح المسلمين، حيث أنهم ما عهدوا ركوب البحر مقاتلين فيه وأسطولهم قتيّ حديث، ودولة الروم دولة عريضة في علوم البحار وفنونه، تسيطر بأسطولها القوي، متكئةً على خبرة طويلة، ورصيد كبير من التجارب على البحر المتوسط، فهو منعهم من الغزو في البحر شفقةً عليهم. ولما غزا العلاء بن الحضرمي الذي كان على البحرين من قبل عمر في البحر وقد نهاه عن ذلك، فأصيب المسلمون هناك على ساحل فارس المقابل للبحرين واستطاع القائد الفارسي أن يوقع خسارة كبيرة بجند العلاء فصار عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً مجاهداً. ولكن عمر لم يعارض في بناء أسطول حربي، فهو يعلم أن أسطولاً يُبنى في سواحل بلاد الشام - في عكا خصوصاً -، وآخر يُبنى في مصر فهو لم يعارض هذا العمل. فعمر - رضي الله عنه - أوسع أفقاً وليس المهم أن يغزو، إنما المهم كسب وتأمين أسباب النصر وسيحين موعد انطلاق البحر، فلكل أجل كتاب!.

ولما ولي عثمان - رضي الله عنه - الخلافة، كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو البحر، وبعد أن استكمل معاوية الاستعدادات، وافق عثمان على طلبه ولكنه اشترط عليه شروطاً، فكتب إليه: "لا تنتخب الناس ولا تُقرع بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فأحمله وأعنه". وبالفعل سار معاوية على شرط عثمان وانتجه. لقد بنى أسطولاً بأيدٍ إسلامية، فكانت مراكبه نواة الأسطول الإسلامي الذي جعل البحر المتوسط فيما بعد بحراً إسلامياً. استعمل معاوية على البحر عبد الله بن قيس الجاسي فاستطاع فتح قبرص، وكان في هذا الجند أبو ذر وعبادة بن الصامت وزوجته أم حرام وأبو الدرداء. ولما فتحت قبرص وتم الصلح بكى أبو الدرداء - رضي الله عنه - فسأله جبير بن نفير: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال جبير: فضرب منكبي بيده وقال: "ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك، إذ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى". وفي هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان زوج عبادة بن الصامت الأنصارية ألقتها بغلثها فاندقت عنقها فماتت. وتحققت نبوءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث أخبرها أنها أول من يغزو في البحر من أمة الإسلام.

بعد أن عُزل عمرو بن العاص عن مصر، وولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة سبع وعشرين للهجرة، فكر عبد الله في غزو أفريقيا جنوب ليبيا فأذن له عثمان، بعد أن أرسل إليه جيشاً من المدينة فيه أعيان الصحابة. انقطعت أخبار هذا الجيش عن عاصمة الخلافة، فأرسل عثمان، عبد الله بن الزبير لموافاته بأخبار جنده، وصل ابن الزبير إلى مواقع الجيش جنوب صحراء ليبيا، فلم ترق له الخطة التي كان عليها ابن أبي سرح، فاستلم القيادة وشرع في تنفيذ خطة جديدة. رأى ابن الزبير قتال المسلمين كل يوم من الفجر إلى الظهر فإذا أذن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه، فقال: إن أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وعن بلادنا، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل عند الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملّوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة، فلعل الله أن ينصرنا عليهم، وهذا ما كان، وحقق ابن الزبير النصر وأنهى المعركة في يوم واحد، وقُتل قائد الروم وعاد إلى المدينة يحمل أنباء النصر.

مما سبق نرى أن الروم قد أصيبوا بضربة حاسمة في أفريقيا، وأصيبوا في سواحلهم بعد سيطرة الأسطول الإسلامي على سواحل البحر المتوسط، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً بناه الروم من قبل، فخرج بألف سفينة، لضرب المسلمين ضربة يثأر بها لخسارته المتوالية في البر، فأذن عثمان - رضي الله عنه - للمسلمين بالغزو في البحر. فأرسل معاوية مراكب الشام بقيادة بسر بن أرطاة، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح في مراكب مصر، وكانت كلها تحت إمرته ومجموعها مائتي سفينة فقط مقابل ألفا سفينة.

سار هذا الركب وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممن أبلوا في الحروب السابقة. لقد انتصر هؤلاء على الروم من قبل في معارك عديدة، فشوكة عدوهم في أنفسهم محطمة، لا يخشونه ولا يهابونه، على الرغم من قلة عدد سفنهم إذا ما قيست بعدد سفن عدوهم، خرج المسلمون إلى البحر وفي أذهانهم أنهم سيجعلون الروم يحسبون للقوة البحرية الإسلامية الفتية ألف حساب، ف وقعت معركة ذات الصواري. والسؤال الذي لم يجد المؤرخون له جواباً موحداً هو: أين وقعت هذه المعركة البحرية الشهيرة التي كانت عام إحدى وثلاثين للهجرة؟ الأقرب والله أعلم أنها كانت على شواطئ الإسكندرية.

قال مالك بن أوس بن الحدثان أحد التابعين: "كنت في ذات الصواري فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا، أي لصالح مراكب الروم فأرسينا ساعة، وأرسوا قريباً منا. وسكنت الريح عنا"، فقلنا للروم: "إن أحببتم نازل إلى الساحل فنقتل، حتى يُكتب لأحدنا النصر، وإن شئتم فالبحر".

قال مالك بن أوس: "فخرروا نخرة واحدة"، وقالوا: "بل الماء الماء". وهذا يُظهر لنا ثقة الروم بخبرتهم البحرية، وأملهم في النصر لممارستهم أحواله وفنونه، فطمعوا بالنصر فيه خصوصاً وأنهم يعلمون حداثة عهد المسلمين به. بات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر، وموقف المسلمين حرج، فقال القائد المسلم لصحبه: "أشيروا عليّ" فقالوا: "انتظر الليلة بنا لترتب أمرنا، ونختبر عدونا"، فبات المسلمون يصلّون ويدعون الله - عز وجل - ويذكرونه ويتهجّدون، فكان لهم دويّ كدويّ النحل، على أصوات تلاطم الأمواج بالمراكب، أمّا الروم فباتوا يضربون النواقيس في سفنهم. أصبح القوم وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال، ولكن عبد

الله بن سعد بن أبي سرح لما فرغ من صلاته إماماً بالمسلمين للصبح استشار رجال الرأي والمشورة عنده فانفق معهم على خطة رائعة يمكنهم أن يجعلوا المعركة بريّة على الرغم أنهم في عرض البحر، فكيف تم للمسلمين ذلك؟ أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن عدوهم، فنزل الفدائيون أو رجال الضفادع البشرية في عرفنا الحالي إلى الماء، وربطوا سفنهم بسفن الروم، ربطوها بحبال متينة فصار ألف ومئتي سفينة في عرض البحر، كل عشرة أو عشرون منها متصلة مع بعضها فكأنها قطعة أرض ستجري عليها المعركة وصَفَّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن يعظّم ويأمرهم بتلاوة القرآن خصوصاً سورة الأنفال لما فيها من معاني الوحدة والثبات والصبر.

بدأ الروم القتال، فهم في رأيهم قد ضمنوا النصر عندما قالوا: "بل الماء الماء" وانقضوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالنصر مستهدفين توجيه ضربة أولى حاسمة يحطمون بها شوكة الأسطول الإسلامي فنقض الروم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهم وصار القتال كيفما اتفق وكان قاسياً على الطرفين وسالت الدماء غزيرة، فاصطبغت لها صفحة الماء فصار أحمرأً. وترامت الجثث في الماء وتساقطت فيه، وضربت الأمواج السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وقتل من المسلمين الكثير، وقتل من الروم ما لا يحصى حتى وصف بعض المؤرخين هذه المعركة بأنها كانت يرموكاً ثانياً على الروم. حاول الروم أن يغرقوا سفينة القائد المسلم عبد الله كي يبقى جند المسلمين دون قائد، فتقدمت من سفينته سفينة رومية ألقت إلى سفينة عبد الله السلاسل لتسحبها وتتفرد بها، ولكن علقمة بن يزيد الغطفاني، أنقذ السفينة والقائد، بأن ألقي بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه.

وصمد المسلمون رغم كل شيء وصبروا كعادتهم في معاركهم فكتب الله - عز وجل - لهم النصر بما صبروا، وانحدر ما تبقى من الأسطول الرومي وكاد الإمبراطور قسطنطين أن يقع أسيراً في أيدي المسلمين لكنه تمكن من الفرار لما رأى قواه تنهار، وجثت جنده على سطح الماء تلقى بها الأمواج إلى الساحل. لقد رأى أسطوله الذي تأمل منه خيراً ونصراً يغرق قطعة بعد أخرى، ففر مدبراً والجراحات في جسمه، والحسرة تأكل فؤاده، يجرّ خيبة وفشلاً فوصل جزيرة صقلية فسأله أهلها عن أمره، فأخبرهم بما حصل لهم فقالوا: "أهلك النصرانية وأفانيت رجالها لو دخل المسلمون لم نجد من يردهم" ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه في المركب.

نختم - معاشر الأحبة - أخبار هذه المعركة بوقفات سريعة:

أولاً: سميت هذا المعركة بذات الصواري؛ لأن صواري السفن ربطت بعضها مع بعض، المسلمة والرومية. والصواري: جمع صار، وهو الخشبة المعترضة وسط السفينة.

ثانياً: كانت ذات الصواري أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون، أظهر فيها الأسطول الفتى الصبر والإيمان والجلد والفكر السليم، بما تقتق عنه الذهن الإسلامي. خطة جعلت المعركة صعبة على أعدائهم فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولة، كما استخدم المسلمون خطاطيف طويلة يجرون بها صواري وشرع سفن الأعداء، الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للروم.

ثالثاً: كانت ذات الصواري حداً فاصلاً في سياسة الروم إزاء المسلمين، فأدركوا فشل خطتهم في استرداد هيبنتهم أو استرجاع مصر أو الشام، وانطلق المسلمون في عرض هذا البحر الذي كان بحراً رومياً وانتهى اسم "بحر الروم" إلى الأبد واستطاع المسلمون فتح قبرص وسردينيا وصقلية وجزر الباليار، ووصلوا إلى مرسيليا.

رابعاً: كان في جند المسلمين بعض الذين غررت بهم أفكار وسموم عبد الله بن سبأ اليهودي ومع كونهم اثنين فقط؛ لكنهم شكلوا طابوراً خامساً تنبه له المسلمون خصوصاً عندما حاولوا بذر سمومهم فقالوا: كيف يولي عثمان عبد الله بن سعد وفي الجند من هو أفضل منه؟

لقد تحققت فراسة عثمان به، لقد أحرز نصراً، وقاد الجند بحكمة. ولا يعيب على عثمان توليته قريباً له ما دامت أهلية القيادة متوفرة فيه، فلا تمنع القرابة حق القيادة لمن هو أهل لها.

لقد أثبت فارس بن عمرو بن لؤي، عبد الله بن سعد أنه قائد البر والبحر، فقد كان على ميمنة عمرو بن العاص لما فتح مصر، وفي حروبه كلها. وقد دعا في آخر حياته: "اللهم اجعل خاتمة عملي الصلاة" فصلى الصبح ثم توفي -رحمه الله-.

خامساً: الإعداد الروحي قبل المعركة، أو ما يسمى التوجيه المعنوي في أيامنا هذه له قيمة في تحقيق النصر، حيث تتجه الروح إلى الله بصدق، فهذا المؤمن الذي بات ليلة في تهجد وذكر يستمد العون من الله، من عظمته وعزته، بعد أن هبأ الأسباب، يلقي الأعداء بروح عالية لا يهاب الموت.

سادساً: أصبح البحر المتوسط بحراً إسلامياً، وصار الأسطول الإسلامي سيد مياه البحر الأبيض المتوسط، وهذه السطوة ليست للتسلط والقرصنة بل للتحرير، فأينما حلوا حل العلم والخير والرفاهية والعدالة الإنسانية. بعدها عكف المسلمون على دراسة العلوم البحرية، وصناعة السفن، وكيفية تسليحها، وأسلوب القتال من فوقها، وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها في البحار ومعرفة مواقعهم على المصورات البحرية المختلفة، فعرفوا البوصلة الفلكية وطورها إلى المدى الذي استفاد منه بعد ذلك البحارة الغربيون في اكتشافاتهم.

سابعاً: صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- عدد من الأحاديث في فضل الغزو في البحر من ذلك:

حديث أم حرام بنت ملحان في صحيح البخاري: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - قال: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامِ بِنْتِ مِلْحَانَ فَنُطْعِمُهُ وَكَانَتْ أُمُّ حَرَامٍ تَحْتِ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَأَطْعَمْتُهُ وَجَعَلْتُ تَقْلِي رَأْسَهُ فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ قَالَتْ فَقُلْتُ وَمَا يَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَرَضُوا عَلَيَّ غَزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ نَجِجَ هَذَا الْبَحْرِ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرِ. قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ وَمَا يَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَرَضُوا عَلَيَّ غَزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا قَالَ فِي الْأَوَّلِ. قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ، فَرَكِبْتَ الْبَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجْتَ مِنَ الْبَحْرِ فَهَلَكْتَ)).

وقال - صلى الله عليه وسلم - : ((أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا ثم قال: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم)). [رواه البخاري].
وَعَنْ يَعْلى بْنِ شَدَّادٍ عَنْ أُمِّ حَرَامٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: ((الْمَائِدُ فِي الْبَحْرِ الَّذِي يُصِيبُهُ الْقَيْءُ لَهُ أَجْرٌ شَهِيدٍ، وَالْغَرِقُ لَهُ أَجْرٌ شَهِيدَيْنِ)) [رواه أبو داود وهو حديث صحيح].
وقال - صلى الله عليه وسلم - : ((غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها، والمائد فيه كالمتشحط في دمه)). [صححه الإمام الألباني - رحمه الله تعالى - في صحيح الجامع].
والحمد لله أولاً وأخراً وظاهراً وباطناً، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً..